أزمة كيلوباترا ونتفليكس: آخر ما تحتاجه مصر المحطمة

ترجمة وتحرير: نون بوست

”هل هي سوداء؟“ سيدة رومانية نبيلة تسأل صديقتها عن كليوباترا في ملحمة هوليوود المبهرجة لسيسيل بي ديميل، بطولة كلوديت كولبير الحائزة على الأوسكار بصفتها الملكة المصرية.

كان تعامل النخبة الرومانية المتباين بين الانبهار والاشمئزاز لغزًا غريبًا؛ حيث من المعروف أن البلاط الروماني لم ينشغل بجنس ملكة مصر القديمة الأكثر شهرة؛ بل بمظهرها.

”هل تعتقد أنها جميلة؟“ يتساءل أرستقراطي آخر في مشهد آخر، قبل ظهور كولبير القوقازي المتميز والمرتدي ملابس ضيقة.

لم يكن العرق هو السمة المميزة لهوليوود في ذلك الوقت؛ حيث تم استبعاد المواهب السوداء من صناعة يديرها إلى حد كبير المديرين التنفيذيين البيض الذين اعتبروا الممثلين والمخرجين الأمريكيين من أصل أفريقي غير قابلين للتسويق ولا يستحقون أن يكونوا في مركز الصدارة.

خلافًا للاعتقاد الشائع، كانت القصص السوداء دائمًا جزءًا من السينما الأمريكية، موجودة في الهوامش وقمعت من قبل آلة هوليود التي كانت قوتها التسويقية قوية جدًا بحيث لا تستطيع هذه الأفلام المصنّعة بشكل مستقل مكافحتها.

لم يكن احتضان هوليوود لسيدني بواتييه في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي وسينما استغلال السود اللاحقة في السبعينيات مدفوعًا بموقف مستيقظ متطور بين نفس المديرين التنفيذيين البيض؛ ولكن لقد أدركت هوليوود ببساطة أن هناك سوقًا للقصص السوداء؛ وأنه سوق مربح للغاية بحيث لا يمكن تجاهله.

لطالما كان كسب المال، وليس التقدمية الحقيقية، هو القوة الدافعة في هوليوود، الأمر الذي لا يختلف في الملكة كليوباترا في نتفليكس.

لم يثر أي فيلم أو مسلسل تلفزيوني آخر الضجة الكبيرة التي قوبلت بأحدث إبداعات نتفليكس هذا العام؛ حيث كان اختيار فنانة سوداء لتمثيل دور كليوباترا مثيرًا للجدل دائمًا، لا سيما بين المصريين الذين يتزايد عداءهم تجاه المركزية الأفريقية.

"بطاقة العنصرية العرقية"

كليوباترا هو الموسم الثاني من سلسلة وثائقية أنتجتها جادا بينكيت سميث حول الملكات الأفريقيات التاريخيات؛ حيث يمثل احتفالًا بثقافة المرأة السوداء التي قمعتها أوروبا والغرب لفترة طويلة.

النسخة الأولى، التي تم بثها في شباط/ فبراير 2023 خلال شهر تاريخ السود في الولايات المتحدة، لم تحظى بنسب المشاهدة المرجوة.

وقد تناول عمل حمل عنوان "نزينجا"؛ حياة حاكمة القرن السابع عشر لمدينتي ندونغو وماتامبا في جنوب غرب إفريقيا (أنغولا الحديثة)؛ حيث عرض البرنامج مقابلات أكاديمية متداخلة مع مسرحية مبتذلة، مما أعطى المحاولة إحساسًا بأنه مثل برنامج نهاري يمكن الاستغناء عنه؛ فقد كان بطيئًا وممًلا من حيث الشكل وبسيطًا للغاية؛ ولم يتضمن تحفيزًا لأي نقاش فكري.

لم يتصدر نزينجا أفضل 10 أعمال على نتفليكس ولم يجد رواجًا في أي وقت في الشرق الأوسط. وبالنظر إلى التصنيفات المتواضعة، شعرتُ بالريبة تجاه الهستيريا المحيطة بكليوباترا.

السقف الفني المنخفض للمسلسل الأول لم يشجع على الثقة بالموسم الجديد، فقد كانت الروايات التاريخية موثقة للغاية ويمكن توقعها بدرجة كبيرة بحيث لا تثير الأمل في الخطاب الأكاديمي الاستفزازي.

ولم يكن السجل الحافل للمخرجة تينا غرافي يكشف عن مخرجة ذات رؤية تتحدى الوضع المرهف لصناعة الأفلام الوثائقية الناطقة بالإنجليزية؛ فعلى الرغم من صدق أعمالها السابق – وأشهرها أنا نسرين حول محنة اللاجئين الإيرانيين في المملكة المتحدة – إلا أنها، مع ذلك، مخرجة مبدعة ولكنها مُبتذلة وسردها للقصص قابلا؛ وخاصة في هذا النوع من الأعمال الواقعية المصنوع لملء موجات الأثير بالمحتوى.

لم يكن لدى نتفليكس وبينكيت سميث سوى بطاقة العنصرية العرقية، واستنادًا إلى الضغط اللامتناهي الذي تلقته كليوباترا؛ سجل الموسم الثاني ارتفاعًا في نسبة المشاهدة، وحقق الشريكان ارتفاعًا معاكسًا في الترويج التسويقي.

"وجهة نظر يمكن التنبؤ بها"

الآن بعد أن تم بث كليوباترا، هل كان المسلسل يستحق كل هذا الضجيج؟ الجواب هو لا. ومع ذلك؛ فإن الجانب الأكثر إثارة للصدمة في هذه القضية البائسة هو أن المسلسل لا يتناول عرقية كليوباترا حتى يكون محور العمل.

في الواقع، لا تقدم سلسل الملكات الأفريقيات شيئًا جديدًا عن الأيقونة المصرية: فهي نفس القصة القديمة التي تُروى بطريقة يمكن توقعها من خلال نفس وجهة النظر التي يمكن التنبؤ بها.

تقدم الحلقات الأربع الخط السردي المألوف بشكل فظيع عن صعود وسقوط كليوباترا: بداية من صعودها إلى عرش مصر في عام 51 قبل الميلاد، إلى علاقتها الشهيرة مع يوليوس قيصر، إلى زواجها من مارك أنتوني وانتحار الزوجين بعد الغزو الروماني في 30 قبل الميلاد.

خرج مسلسل كليوباترا على نفس نهج نزينجا؛ حيث تضمن مقابلات متوسطة عن قرب مع أكاديميين – جميعهم ينحدرون من مؤسسات أمريكية وبريطانية – تتخللها حلقات درامية من حياة كليوباترا، والتي تتميز جميعها بالتمثيل الهامشي وقيم الإنتاج المتواضعة والاتجاه غير المشوق.

أبقت غرافي أسلوب السرد الرتيب دون تدخل؛ والنتيجة هي مشاهدة عليلة بشكل استثنائي جعلت الحلقات كأنها أفلام مصنوعة بملل وآلية.

مع عدم وجود وجهة نظر جمالية مميزة معروضة وعدم وجود شيء جديد فكريًا للتعامل معه، أصبحت كليوباترا بسرعة اختبارًا للصبر قبل أن تصل إلى الحلقة الثانية.

يُظهر تصنيفها الجديد المعدم بنسبة 11 في المائة على موقع الطماطم الفاسدة أنه حتى الصحافة الدولية الأكثر تساهلاً لم تجد أي مميزات في العرض.

يعرف المنتجون أنهم يركضون في الفراغ؛ لذا فليس من المستغرب أن يتم الترويج لعرقية الملكة المصرية في وقت مبكر، وإن كان بطريقة متسرعة وغير علمية.

ففي لحظاته الأولى، وعدت سميث بالكشف عن "حقيقة" كليوباترا، مما يمهد الطريق للوحي الملحمي الذي توقعه المشاهدون.

بعد لحظات؛ قالت الأكاديمية شيلي هالي من كلية هاميلتون: "أخبرتني جدتي، لا يهمني ما يقولونه لك في المدرسة، كانت كليوباترا سوداء".

ويقول الدكتور إسلام عيسى، وهو ناقد أدبي بريطاني مصري ومؤرخ بجامعة برمنغهام سيتي: "يمكن لأي شخص أن يتخيل كليوباترا بالطريقة التي يريدها. وأنا أتخيلها مجعدة الشعر مثلي".

وهذا هو الخطاب الكامل الذي يقدمه المسلسل عن عرقية كليوباترا.

سيصاب المشاهدون المتلهفون لإجراء مناقشة مناسبة حول هذا الموضوع بخيبة أمل كبيرة؛ فلم يتم ذكر عرقية كليوباترا مرة أخرى طوال العرض. في نهاية المسلسل، تقول هايلي: "أردت أن أظهر لكليوباترا ما كانت عليه: ملكة أفريقية عظيمة".

في مواجهة عدد لا يحصى من المقارنات الصارخو والدعاوى القضائية المتعلقة بحقوق الملكية والتمثيل الثقافي، فإن هذا البيان العام للغاية يأتي على أنه قمة هائلة مضادة للذروة.

"حيلة تسويقية"

من المسلم به أن نتفليكس شددت في بيانها الشهر الماضي على أن: "عرقية (كليوباترا) ليس محور (المسلسل) ، لكننا قررنا عمدًا تصويرها من أصل عرقي مختلط لتعكس نظريات حول السلالة المصرية المحتملة لكليوباترا والطبيعة المتعددة لثقافات مصر القديمة".

ومع ذلك، ولإثارة الاهتمام؛ أعطى المقطع الدعائي للعرض انطباعًا بأن عرقية الملكة هو محور المسلسل من خلال وضع بيان هالي المذكور أعلاه بشكل بارز.

حصد المقطع الدعائي أكثر من ثلاثة ملايين مشاهدة على يوتيوب مقارنة بـ 240.000 مشاهدة لمقطع مسلسل نزينجا.

بصرف النظر عن بيان نتفليكس؛ قفز الجميع إلى عربة "كليوباترا السوداء"؛ حيث خصص كل منفذ إخباري تقريبًا تغطية كبيرة لما أطلق عليه اسم "الغسيل الأسود" جنبًا إلى جنب مع رد فعل مصر المبالغ فيه على المسلسل.

لا أحد يهتم بالانتظار لمشاهدة المسلسل؛ حيث كان لدى الجميع مجموعة من الأحكام المسبقة التي كانوا على استعداد لإطلاق العنان لها.

في سياق العرض الفعلي، فإن نتفليكس ليس عليها لوم. بعيدًا عن بيان هالي المقتطع وغير المدعوم، لا تحاول السلسلة إقناع المشاهدين بأن كليوباترا ربما كانت سوداء.

تم تصوير حملة الإمبراطور الروماني أوكتافيان ضد كليوباترا على أنها معادية للأجانب وفيها كراهية للنساء إلى حد كبير، ولكن لا تلعب جذورها الأفريقية المحتملة أي دور في عداوته.

من المؤكد أن أديل جيمس، التي قامت بعمل قوي في تجسيد دور الأيقونة المصرية على الرغم من نص الحوار الشرير، كان من الممكن أن يسند دورها لممثلة مصرية. إنها ليست مخطئة وخلفيتها العرقية ليست قضية نظرًا للطبيعة غير السياسية للمسلسل.

لم تكن بطاقة العرقية أكثر من حيلة تسويقية رخيصة، وخطوة مثيرة من قبل شبكة سبب وجودها هو جذب المشتركين ولا شيء آخر.

نظرة غربية

قصة حياة كليوباترا تم تناولها منذ أن وُجِدَتْ السينما، وتم إجراء أكثر من 20 عمّلا في السينما والتلفزيون عن الملكة المصرية، بما في ذلك عملين من بوليوود، وفيلم "أستيريكس وأوبيليكس"، الذي جسدت فيه مونيكا بيلوتشي دور كليوباترا.

ووعدت "نتفليكس" بعمل عن بكليوباترا "لم يسبق له مثيل" ولكن، لم يكن الأمر كذلك؛ فقد أثارت المنصة عرضًا يصب تركيزه على ذكاء كليوباترا لكن غرافي لا تبتعد عن نظرة الرجل الأبيض نفسها التي انتقدتها، فتشوّه عادات كليوباترا المرموقة وحبها وحياتها الجنسية بلا خجل.

الأكثر إشكالية، في إسناد الدور لجيمس، أنها اختارت جمالًا مذهلًا مع شخصية مثالية. وبذلك، تستسلم غرافي والمنتجون للمعايير الغربية القمعية للجمال بدلًا من أن تتحداها.

تبرز الحسابات التاريخية تألق كليوباترا وجاذبيتها، ولطالما كان جمالها الجسدي موضوع نقاش.

لا تظهر تلك الجاذبية أبدًا في الدراما المبالغ فيها التي تحاول باستمرار التوصل إلى مبررات للجانب المظلم المخفف للملكة.

ربما قتلت كليوباترا زوجها وأعدمت ابنها، لكنها فعلت ذلك بدافع الإرادة المطلقة من أجل البقاء.

جيمس ليست أقل جمالًا من كولبيرت أو إليزابيث تايلور أو بيلوتشي، لكن تفوقها وافتقارها إلى الجرأة يجعلها أقل إثارة للاهتمام من تلك التجسيدات السابقة.

تبتعد "نتفليكس" عن السياسة الشائكة ولكنها دائمًا ما تكون صريحة بشأن سياساتها الجنسية والجنسية الليبرالية الزائفة، ومسلسل الملكة كليوباترا ليس مختلفًا؛ حيث يمدح المسلسل قوة كليوباترا كقائدة نسائية، ويتعجب من الاختلاط الجريء وتعدد الزوجات، ويلمح إلى ازدواجيتها الجنسية، وهذه هي نفس السياسات التي ترتبط عادةً بعروض "نتفليكس": الإيجابية الجنسية، فضلًا عن السياسة الجنسانية والميوعة.

معظم المفكرين الليبراليين، بما في ذلك هذا الكاتب، لا يأخذون أي مشكلة في الدعوة إلى هذه الأجندة، لكن المشكلة مع كليوباترا وعروض "نتفليكس" الأخرى هي الأسلوب الصارخ والمفرط في التبسيط الذي تُعرض به هذه القضايا.

كليوباترا ومصر اليوم

لا تتطرق الملكة كليوباترا إلى الموضوعات التي يمكن أن يكون لها صدى في مصر المعاصرة؛ فقد كان من الممكن على الأقل التلميح إلى تشابه بين معاملة روما السيئة لمصر قديمًا مع تعامل وسلوك صندوق النقد الدولي وبلدان الخليج تجاه مصر الحديثة، لكن هذا لم يحدث أبدًا. وبدلاً من ذلك، يظهر العرض كرمز أجوف لا علاقة له بما يحدث في مصر اليوم.

ردًا على "نتفليكس"؛ تم نشر فيلم وثائقي مستقل من إخراج الجنوب أفريقي الأبيض كورتيس رايان وودساید على موقع "يوتيوب"، في نفس يوم عرض "الملكة كليوباترا"؛ حيث يتألف الفيلم بالكامل من مقابلات، بما في ذلك مع صانع أفلام مصري وباحث بأوراق اعتماد غير محددة حول هذا الموضوع، وعالم الآثار المصري غير المعروف زاهي حواس، الذي شرع في إثبات أن كليوباترا ليست سوداء قبل أن يدّعي بشكل محرج أن أقرب أصدقائه من السود.

إن حجج حواس تكاد تكون معدّة مسبقًا وغير مقنعة، خاصة بالنسبة لأي شخص لديه ما يشبه المعرفة حول كيفية نقل التاريخ ونشره.

فيلم وودساید الوثائقي "الفارغ المحتوى" ينبعث من رهاب الأجانب، مما يؤكد على خلفية الملكة المقدونية حيث يردد عدد من الذين تمت مقابلتهم نية سميث لقول "حقيقة كليوباترا".

في كلتا الحالتين، تضع صناعة الأفلام القيمة الجمالية في مرتبة متأخرة خلف مشكلات القضايا الحساسة، ولا توجد مشكلة أكثر حساسية في الوقت الحالي من العرقية.

ففي التغطية اللانهائية للمسلسل، لم يتم الحديث عن القيم الفنية ولو حتى لمرة واحدة؛ حيث أراد الجميع أن يكونوا جزءًا من المحادثة، وتم تجاهل القيمة الفنية رغم كونها جانبًا شديد الجدية ومعقدًا من السلسلة، ولكنها لا تثير اهتمام الناس وضجيجهم مثلما يفعل التصوير العنصري – الذي يبدو أنه غير دقيق – لقائدتهم النسائية الأكثر شهرة.

قضية التمثيل

بصفتي عضوًا في مجموعة أقلية، وهي عربية قبطية علمانية غير وطنية، فإن التمثيل على الشاشة هو أحد اهتماماتي الرئيسية، وأحد المخاوف التي أحاولُ فحصها واستجوابها بشكل روتيني. لكن عندما يصبح التمثيل هو المجال الوحيد للرقابة في السينما والتلفزيون، يجب اتخاذ موقف.

على مدى العقد الماضي؛ أنتج التمثيل على الشاشة صناعة كبيرة تضم منظمات وكتّاب يقدمون تفسيرات بالأبيض والأسود لكيفية تمثيل مجموعات الأقليات وكيف ينبغي تصويرها.

لم يكن تاريخ السينما والفن جزءًا من المحادثات أبدًا، وعادة ما يتم تجاهل التساؤلات الفلسفية العميقة حول الفن والأخلاق. والأكثر إحباطًا؛ أنه يتم باستمرار تجاهل الاستخدام السياسي للجماليات .

بالنسبة للصحافة السائدة، وبالنسبة للعديد من النقاد الثقافيين الشباب، لا يهم كيف يتعامل العرض مع إرث كليوباترا أو نوع أدوات سرد القصص التي يستخدمها لنشر قصتها؛ كل ما يهم هو لون بشرتها وعرقها وماذا يعني كل ذلك.

أُسيل الكثير من الحبر حول الموقف العنصري المصري تجاه السود، ولكن في خضمّ تلك اللحظة، ضاعت الفروق الدقيقة لهذه المادة شديدة التعقيد في خلط ورق اللعب.

وتمت مناقشة العداء المصري تجاه "المركزية الأفريقية" بهدوء أكبر بعد إلغاء حفل لكيفن هارت في شباط/فبراير؛ حيث غامر العديد من الباحثين المصريين باستكشاف علاقة مصر الإشكالية بالتاريخ الفرعوني.

وفي أفضل مناقشة استمع إليها هذا الكاتب حول هذا الموضوع؛ سلط الكاتب المصري المنفي بلال فضل والباحث والروائي المصري المتميز المقيم في لندن شادي لويس بطرس، الضوء على حقيقة أن علاقتنا الجديدة بمصر القديمة قد نشأت في الغالب في بداية القرن العشرين كوسيلة لمحاربة الحكم الاستعماري البريطاني.

الهدف من صعود "علم المصريات" لم يكن مختلفًا عن الهدف الذي أدى إلى ولادة "المركزية

الأفريقية"، وهي حركة أرادت بالمثل استعادة التاريخ الأفريقي بعيدًا عن التأثير الاستعماري.

جزء كبير من رد الفعل المصري تجاه "الملكة كليوباترا" على "نتفليكس" هو بلا شك يتمحور حول العنصرية بطبيعته، لكن لا يمكن فصله عن ذلك، بمعنى آخر، فهو ليس خبيثًا في جوهره .

لا يزال العديد من المصريين مستعمَرين وفقًا للمعايير الأوروبية البيضاء عن الجمال، ويشعر الكثيرون منهم بالقلق من التراث الثقافي الذي نهبه الغرب لقرون. ويشعر الكثيرون أيضًا بالعجز والارتباك تجاه القوى الغربية الغنية – وتحديدًا صندوق النقد الدولي وداعميه الأمريكيين والأوروبيين- التي تواصل تشكيل مصير مصر.

لا شيء يمكن أن يبرر الهجمات العنصرية التي تعرضت لها غرافي وجيمس، لكن هذه ليست مجرد حالة لأشخاص يشعرون بالتهديد من لون بشرة أحد الممثلين كما قالت هذه الأخير في بودكاست حديث.

لا تزال مصر تعاني لحظة "هزيمة جماعية"، كما وصفها بطرس: أسوأ أزمة اقتصادية منذ جيل، موت الطبقة الوسطى، الانتقادات اللاذعة المتزايدة تجاه زعيم البلاد الذي لا يحظى بشعبية والذي لا يمكن الإطاحة به (والذي تم دعمه من قبل الولايات المتحدة وأوروبا)، والتأثير المتزايد لمنطقة خليجية مصرّة على شراء البلاد بثمن بخس.

لم يشعر المصريون باليأس والعجز الشديد منذ هزيمة "حرب الستة أيام"، ومصر اليوم دولة محطمة بلا منقذ، واستفزاز "نتفليكس" هو آخر شيء تحتاجه هذه الأمة.

بالنسبة لبلد لم يعد يمتلك أي شيء، ولا حتى الحق في تقرير المصير، فإن مجرد تلميح لإعادة صياغة تاريخه – وربما هو آخر شيء بقي يمتلكه على ما يبدو – لا يمكن أن يمر بشكل عرضي كما توقعه النقاد بجهل.

المصدر: ميدل إيست آي

رابط المقال: https://www.noonpost.com/47180/